ثقافة الوحدة الوطنية بين الماضي والحاضر
تذكير وإشارات

د. فيصل دراج*

في تعليقه على أفكار جون فيلبي، الخاصة بفلسطين "ثنائية القومية"، في نهاية عشرينات القرن الماضي، قال فايتسمان رئيس الوكالة اليهودية: "إن المفاوضات لن تكون ممكنة إلا من موقع القوة". لم يكن اليهود في فلسطين، آنذاك، أكثرية، ولا قريبين منها، بل عندهم هدف استيطاني واضح، يتمتع بالدعم الإنجليزي و"التعاطف الأوروبي ـ الأمريكي".

اعتنق المشروع الصهيوني، في مراحله المختلفة، مبدأ القوة، متوسلاً أسباباً ذاتية وموضوعية، فلولا الإرادة اليهودية في انتزاع "وعد بلفور" لما ظهرت دولة إسرائيل إلى الوجود. وفي مقابل مبدأ القوة زاوج الفلسطينيون بين الفعل الكفاحي الوطني ومبدأ الحق. وإذا كان التمسك بالتراب الوطني قد أمدّهم بفعل كفاحي، منذ منتصف ثمانينات القرن التاسع عشر حتى اليوم، فإن الاطمئنان إلى مفهوم الحق، وهو صحيح على أية حال، قد منعهم عن الالتفات، بشكل كافٍ إلى "مبدأ القوة"، فنظروا إلى قوة خصمهم بشكل منقوص، وإلى ضعفهم الذاتي بشكل أكثر نقصاً. ولعل هذا النظر المنقوص هو الذي جعل من "الوحدة الوطنية" رغبة "صعبة التحقق"، يندفع إليها المدافعون عن المصلحة الوطنية العامة، ولا يخلص لها المتمسكون بالمصالح الذاتية.

تمكن العودة، في هذا المجال، إلى كتب ثلاثة: مسألة فلسطين ـ المجلد الثاني ١٩٢٢ ـ ١٩٤٧، للمؤرخ الفرنسي هنري لورانس، الذي وضع تاريخ فلسطين الحديث في مجلدات عدة، تتميّز بالمعرفة الموسوعية والنزاهة العالية، والكتاب الثامن من يوميات خليل السكاكيني، التي ضمّت رسائله وتأملاته ويومياته

* كاتب وناقد من فلسطين

الواسعة التي اتسعت للشخصي والوطني والتربوي والحياة حافلة يتحاور فيها الساخر والمأساوي. أما الكتاب الثالث فهو: "فلسطين، تاريخ شخصي"، للإنجليزي الفلسطيني الأصل: كارل عيسى صبّاغ.

أعطى المؤرخ الفرنسي في حدود الفترة الزمنية التي اختارها، صورة مفصلة للتناقض الطويل بين النشاشيبي وعائلة الحسيني، الذي استمر إلى ضياع فلسطين، وتوقف كارل صباغ أمام الجهود الغربية في طمس ملامح فلسطين وتبرير احتلالها "حضارياً"، على اعتبار أنها كانت أرضاً فارغة لا أهل لها. أما خليل السكاكيني، الذي أراد وعياً وطنياً "حدثياً"، فرسم وحدة المعرفة والأخلاق، إذ الأولى من دون الثانية شكل زائف لا خير فيه، وإذ جوهر الإنسان من القيم التي يتمتع بها. تنتهي الكتب الثلاث إلى نتائج واضحة: أسهم "الصراع العائلي" في إضعاف القضية الوطنية، حين اعتقدت مراجعه أنّ امتيازات العائلة، أي حضورها في "السلطة القائمة"، أكثر أهمية من الشأن الوطني، كما لو كانت "العائلة الحسيبة" هي الوطن، والأخير مجرّد حيّز ملائم لهيبتها ومصالحها، وتقول النتيجة الثانية: أسهم "الغربيون" في الاحتلال اليهودي لفلسطين منذ زمن "الرحّالة" في القرن الثامن عشر، إلى اليوم، متوسلين حجب الحقائق وتزويرها حين الحديث عنها، وتخليق التصورات التي تقبل بالحجب والتزوير. حلم السكاكيني بفلسطيني مستقل الشخصية والمحاكمة، يمتثل إلى ما يمليه عليه عقله و"البداهات العقلية" التي تأخذ بها "الإنسانية الراشدة"، فالذي لا ذات له لا قرار له، والمكتفي بأحكامه يقف على هامش الزمن والعالم.

١- نصرة العائلة أم الانتصار للوطن

مايز المؤرخون، وهم يقرأون تشكّل الشعوب الحديثة، بين شعارين ارتبطا بمعارك الشعوب وهي تقاتل عدواً خارجياً. كان الأول يقول: "في سبيل الملك" واضعاً الذات الحاكمة فوق التراب الوطني، الذي أعادت الثورات القومية صياغته وأصبح: "في سبيل الوطن". التمس الشعار الأول تسويغه من ذات تنتمي إلى الوطن وتقف فوقه، واستغنى الشعار الثاني عن الذات المتعالية، وساوى بين الوطن والمواطنين. لم يعرف التاريخ الفلسطيني الحديث هذين الشعارين ، لأسباب متعددة، لكنه عرف شكلاً مغايراً، قريباً منه ولو بقدر قوامه: "في سبيل العائلة"، الذي كان يتوه كثيراً قبل أن يصبح "في سبيل فلسطين". ومع أن الحسينيين كما النشاشبيين، كانوا يتمسكون بوطنهم، فإن القيم العائلية التقليدية، أقامت اختلاطاً بين الشعارين.

مايز هنري لورانس، وهو يتحدث عن موقف القوى السياسية من الانتداب البريطاني، في عام ١٩٢٢، بين القوميين والمعتدلين قائلاً "بأن آل الحسيني يعرِّفون أنفسهم بأنهم قادة الحركة القومية، أما

جماعة المعتدلين فهي تدين بالولاء لآل النشاشيبي المنافسين... ويحلّل المسؤولون البريطانيون هذا الانقسام بوصفه مشابهاً للانقسام في مصر بين الوفد وخصومه بغية رئاسة الحكومة". والواضح الوحيد في الكلام تعبير "الانقسام"، ذلك أن الوفد كان حزباً شعبياً واسعاً، في حين أن ما يوازيه فلسطينياً، كما خصومه، تمثل بعائلات تتطلع إلى النفوذ، أمّا كلمة "الحكومة فلا تعني في الحال الفلسطيني شيئاً لأن الانتداب كان هو "الحكومة الوحيدة المتاحة"، وأكثر من هذا وذاك أن مصر لم تكن مهددة باستيطان خارجي. وكما هو الحال دائماً، فمن المتوقع أن يستفيد عدو الفلسطينيين من الخصومة القائمة بينهم، وتوليدها إن لم تكن قائمة. ولهذا يتابع لورانس: "وفي فلسطين، يقدّم الصهيونيون مساعدة مالية "للجمعية الإسلامية ـ الوطنية" المطلوب منها التصدي "للجمعيات الإسلامية ـ المسيحية"، وهي تضم أبرز أنصار اتجاه آل النشاشيبي ذوي الخلافات الشخصية أو العائلية مـع آل الحسينـي". ولهذا "يتعرض ممثلو فصيل النشاشيبي للهجوم من جانب متظاهرين غاضبين يتهمونهم بأنهم خونة وعملاء للصهيونية..". توقف الجمهور الغاضب أمام الإشارات التي تدل على الخيانة، سيّان كانت وهمية أو مخترعة، ذلك أن حسه الوطني السليم يقنعه بأن "انقسام الصف الوطني" فعل يعادل الخيانة، لأنه كان في ذاك الانقسام إضعافاً لطرف فلسطيني يشكو من الضعف أساساً، أو كما يقول المؤرخ: "وتؤدي طموحات فصيل الحسيني وفصيل النشاشيبي المتنافسة إلى إصابة الحركة القومية بنوع من الشلل".

والمشهد السياسي الفلسطيني، في بدايات عشرينات القرن الماضي مأسوي في الاتجاهات جميعاً، بدءاً بفن "الإيهام السياسي" الذي أتقنه الإنجليز، اعتماداً على لغة ترتاح إلى الجمل الناقصة، مروراً بأكثر من تنافس فلسطيني، وصولاً إلى قيادة تحتفي بالكليات ولا تعترف بالجزئي والجزئيات. فإذا رجع القارئ إلى الصفحة ٦٣ من كتاب لورانس وجد أن "بعض النابلسيين شعروا بالغيرة من دور آل الحسيني"، وأنه يفضل العمل بشكل مستقل، وأن هدف النشاشبيين"إظهار قوتهم"، لا التنسيق مع أطراف أخرى تسعى إلى مصلحة وطنية عامة، "وأن ضعف القيادة الفلسطينية الحقيقي يكمن في عجزها من التمكن من الفصل بين مرونة تكتيكية والأهداف الاستراتيجية الطويلة الأمد". فمن أين تأتي الرؤية الوطنية الموحدة، إذا كان في نابلس ما لا يتفق مع القدس، وفي كل عائلة ما لا ترضى عنه عائلة أخرى، ومن أين تأتي الرؤية الواضحة إذا كانت العائلة هي المنطلق ، بقدر ما كانت "هيبة" المدينة منطلقاً آخر؟

إذا كانت الشعوب، في أزمنة ما قبل الحداثة، تخوض معاركها "باسم الملك"، وهو رمز سلطوي جامع، فإن شعب فلسطين، في الفترة التي أعقبت وعد بلفور، خاض معاركه موزعاً على مراجع فقيرة متعددة، جهوية وعائلية ودينية، باستثناء فترات الحراك الشعبي العاصف، الذي كان يختصر

المراجع جميعاً في كلمة: الوطن. كان في نابلس ما يعصم "بعضها" عن المنافسة المأساوية، على مبعدة من الاختلاف الحسيني ـ النشاشيبي، الذي أخذ شكل القاعدة.

أفرد المؤرخ لورانس صفحات من دراسته أعطاها عنواناً محدداً: "الحسينيون والنشاشيبيون"، علماً أن ما جاء تحت هذا العنوان يخترق صفحات الكتاب كلها، منذ أن أقُصي كاظم الحسيني عن عمودية القدس عام ١٩٢٠ لصالح راغب النشاشيبي ـ الذي لم يقتصد مع عائلته في توليد مناورات تضعف "خصمه العائلي الأساسي"، التي أضعفت طويلاً "توحيد المجال السياسي الفلسطيني". وقد يبدو الخصام خلافاً بين عائلة راسخة تقليدية ذات نسب مهيب، وهي عائلة الحسيني، وعائلة حديثة التشكل ذات "عقل حديث وبراجماتي"، ذلك أن راغب النشاشيبي، زعيم عائلته، كان واحداً من أوائل المهندسين الفلسطينين المتخرجين من جامعة استنبول، عمل مهندساً في سنجق القدس، قبل أن يصبح نائباً في البرلمان العثماني، وكان يعرف التركية والفرنسية وإن لم يكن يعرف الإنجليزية..." . بيد أن تشكيله الثقافي الحداثي يطرح سؤالين: أين الحداثة في عقل يلغي المسافة بين الاختلاف العائلي والاختلاف السياسي، وهل المطلوب تسييس الوعي العائلي، في شروط وطن مهدد، أم إعطاء العمل السياسي بعداً عائلياً؟ وهل المطلوب إنقاذ "وجه العائلة" أم المساهمة في بناء مجال سياسي وطني موّحد"؟ تأتي الإجابة مربكة ومرتبكة، في جميع الأحوال، (أو تنقصها المعرفة الصحيحة)، ذلك أننا نقرأ ما يلي في الصفحتين٧٦ ،٧٧ من كتاب هنري لورانس: "كان راغب النشاشيبي مدفوعاً إلى تعريف نفسه بوصفه "معتدلاً" حريصاً على الانتماء الاقتصادي،...، والحال أن عداوة المعتدلين لآل الحسيني قد عادت إليهم "بدعم مالي عرضي من جانب الصهيونيين وكانوا بالطبع ميالين إلى "التجارب التنموية التي طرحتها الدعاية الصهيونية ...". ومن المثير للفضول أن يبني متعلم فلسطيني حديث تصوّره السياسي، كما تحالفاته، على قاعدة "العداوة لهيمنة آل الحسيني"، وأن تأخذ بهذه القاعدة عائلات أخرى، مثل عائلة الدجاني الممثلة بمرجعها عارف باشا الدجاني، وفي نابلس انحازت عائلة طوقان بشكل شبه تلقائي إلى صف آل النشاشيبي، لأن عائلة الأعيان الكبرى الأخرى، آل حماد، انحازت إلى الحسينيين وأنصارهم. وفي أماكن عديدة نشأت ظاهرة الانقسام ذاتها بحسب منطق خاص بمجتمعات المنطقة كان معروفاً في العصور السابقة كتلوين الحلفين القيسي واليمني، كما يقول لورانس.

مهما تكن قوة الأعراف والتقاليد الموروثة من "الحلفين القيسي واليمني"، التي سبقت بقرون المشروع الصهيوني في فلسطين، فمن الغرابة أن يبدو الموروث القبلي أكثر فاعلية من التهديد الخارجي، ما يستدعي النظر القائل "بسيطرة الأموات على الأحياء"، ذلك أن وعياً حياً عليه أن يعرف الفرق بين عادات "داخلية" "ماضية" وعدواناً خارجياً "قادماً. بل أن قوة هذا الموروث تبدّد صفة "البراجماتي" المنسوبة إلى راغب النشاشيبي، التي تحتفي بالغاية ولا ترى إلى الوسيلة، ذلك

أن معارضة الحسينيين كانت تبدو قوية عندما تكون "أقل انحيازاً إلى صف الصهيونيين"، أي أن براجماتية النشاشيبي، لو كانت عقلانية، لانصرفت إلى مواجهة الصهيونية بدلاً من احتراف معاداة الحسينيين، التي جلبت للبعض "دعماً مالياً" صهيونياً، كما يقول المؤرخ الفرنسي.

يصاب القارئ، فلسطينياً كان أو غير فلسطيني بالدهشة حين يقرأ في كتاب المؤرخ الفرنسي الكلمات التالية: "وفي مسلك يتميّز بالحصافة، يقدم الصهيونيون تأييدهم للنشاشيبيين فيكفلون بذلك انتصارهم في المدن المختلطة في المدن الرئيسية. ص:١٣". أما الانتصار المفترض فمرتبط بالانتخابات البلدية التي جرت عام ١٩٢٧، الأمر الذي جعل من الصهيونيين طرفاً "محكماً" في السياسة الفلسطينية، يدعم طرفاً ويمنع الدعم عن آخر، انطلاقاً من معرفة مدى نفوذ الطرفين في المدن والبلديات، خاصة أن سيطرة الحسينيين كانت "أكيدة" في مكانين، لا غير، هما غزة والمجدل.

من المفترض، في الحياة السياسية الوطنية السليمة، أن يكون الشعب الفلسطيني هو القوة التي "تتحكم" في شأن فلسطيني "داخلي" والعنصر الحاسم في "تصويب" الأطراف السياسية الفلسطنية. ولكن ماذا يعني تحوّل الصهاينة إلى "مرجع محكم" في انتخابات غير صهيونية؟ يتمثل العنوان الأول في هذا المجال بالواقع البديهي: تشتت، بل تمزق، المجال السياسي الوطني، وثاني العنوانين: غياب الوضوح الوطني الذي منع، فعلياً، رؤية الخطر الصهيوني في أبعاده الحقيقية، والبعد الثالث يتكشّف في هوة فاصلة بين الفلسطينيين وممثليهم السياسيين، المنصرفين إلى مصالحهم الذاتية ، فلو كانوا منصرفين إلى "مستقبل الوطن" لكانت سياساتهم محصلة للحوار بينهم وبين شعبهم. لا غرابة أن يشير المؤرخ الفرنسي إلى شيء من الفساد الأخلاقي ـ المعنوي، لا بمعنى "الدعم المالي الصهيوني" بالضرورة، بل بمعنى أكثر ضراوة هو فساد الرؤية، التي ستجعل الشعب الفلسطيني، بعد عشر سنوات من وعد بلفور، يفقد الثقة "بالقيادة"، ويبحث وحيداً عن الدفاع عن وطنه، في انتظار الاضرابات الكبرى القادمة واللجوء إلى السلاح.

وواقع الأمر أن في كلمة "الخيانة" ما يسرّ إلى ضمائر الفلسطينيين، قديماً وحديثاً، وخاصة في حالات استعمالها السهل القريب من النميمة، أو التي يطلقها طرف ضد آخر بحثاً عن "انتصار رخيص"،... لكن الأمر فعلياً، وكما تدلل وقائع متواترة، لا يختصر في تقويم أخلاقي بسيط، ولا يرتبط بالنوايا والشعارات، فهو لصيق بما تحتاجه المصلحة الوطنية، بعيداً عن الأفراد والزعامات، وقريب ممّا يدعى "بالخيانة الموضوعية"، أي بالأذى الكبير الذي يلحق بالوطن، دون النظر إلى "النيات"، التي لا يعترف بها العمل الوطني كثيراً.

إن مواجهة الانقسام، قديماً كان أو حديثاً، هو دفاع عن القضية الوطنية، وتعبير عن فعل سياسي

وطني أخلاقي، يحفظ التجربة الفلسطينية ويعاينها بوعي مسؤول، يتعلّم من الماضي، ويصحح أخطار الحاضر بوعي مستمد من المستقبل، انطلاقاً من قاعدة بسيطة تقول: من لا يتعلم من أخطاء الماضي لا يحسن التعامل مع المستقبل.

ربما لم يكن بإمكان "الانقساميين الفلسطينيين"، في زمن الانتداب البريطاني، أن يمنعوا المشروع الصهيوني، لكنهم كانوا قادرين على إعطاء الكفاح الوطني مآلاً مختلفاً، ولو بقدر.

٢ ـ خصوم الفلسطينيين وفن الخديعة:

قال هنري كيسنجر السياسي الأمريكي الشهير ذات مرة: "يستطيع القوي أن يكذب كما يشاء"، وبقية القول هي : "إن أحداً لا يتجرأ على محاسبته"، كما لو كان الكذب والصدق يرتبطان بالقوة ولا علاقة لهما بمبادئ الأخلاق. و"الكذب القوي": في علاقته بفلسطين، في زمن "السرديات الاستعمارية"، له أشكال متعددة: صورة فلسطين كما شاءها الوعي الاستشراقي، حيث الخلاء الواسع الذي تتصادى فيه أصوات الأنبياء، وصورتها في الوعي الإنجيلي الأوروبي الذي حدّث عن مكان فارغ ينتظر اليهود، وصورة الفلسطينيين التي تعاملت معها المناورات الإنجليزية في زمن الانتداب، التي رأت إلى "شعب قاصر" غير جدير بالوعود الجدية. وهناك "حكماء صهيون" الذين كان لهم قول داخلي خاص بهم وبالإنجليز، وآخر خارجي لا يثير "غرائز الفلسطينيين".

قدّم كارل عيسى صبّاغ الفلسطيني الأصل، في كتابه "فلسطين ـ تاريخ شخصي"، عملاً متعدد المستويات. يقترب في وجه منه من الكتابة الروائية المبدعة، التي تجمع بين السيرة الذاتية والوثائق التاريخية، ويرسم في وجه آخر رحلة إلى أرض الأب والأجداد المليئة بالحنين والشجن، وفند في مستوى ثالث مزاعم صهيونية متعددة، ... أما البعد الأكثر أهمية، في ما يخص القضية الفلسطينية، فيتمثّل في عرض لوحة واسعة من الأكاذيب، بدأت قبل اغتصاب فلسطين واستمرت بعده، يختلط فيها الأوروبي بالأمريكي والانتدابي الإنجليزي بالخطاب الصهيوني،... لا يرتبط الأمر بعادة الكذب، ذلك أن في "القيم المتحضّرة" ما يحض على الصدق، بل يرجع إلى عادة إلغاء الآخر الضعيف، وهو ما أشار إليه إدواردو غالينو في كتابه "اكتشاف أمريكا الذي لم يحصل"، حين بيّن أن أمريكا ـ أرض الهنود الحمر ـ كانت موجودة قبل "اكتشافها"، وكان لها شعب له حضارة وثقافة، وله "روح" تسعد وتتألم بعيداً عن "فتاوى كنسية" صرّحت ، ذات مرة، بأن الهنود الحمر لا أرواح لهم.

حين زار الكاتب الأمريكي الشهير مارك توين فلسطين عام ١٨٦٧ سجّل في كتابه "البريئون المسافرون": "لا يلفت النظر أية حركة غريبة في "مرج بني عامر"، فلا يوجد في أراضيه قرية واحدة، ولا على

مسافة ٣٠ ميلاً في طرفي الوادي"، منجزاً صورة لأرض مهجورة بائسة، متناسياً أن فلسطين كانت مأهولة بالفلسطينيين وأن عدد سكان نابلس، على سبيل المثال، كان ٢٨,٥٠٠ في عام ١٨٤٧، كان نسبة اليهود منهم "ثلث الواحد بالمائة ـ عام ١٨٢٩". ليس فلسطين التي لا سكان فيها، إلا أرض "الغالبية اليهودية المنتظرة"، التي اخترعها "مبدأ القوة" الذي أخذ به لاحقاً الانتداب البريطاني، أو التي أملاها وعي لاهوتي جاهز يؤكد "الرابط التاريخي بين الشعب اليهودي وفلسطين". لا تختلف حقيقة الرابط التاريخي عن وعود بريطانيا وفرنسا للعرب قبل هزيمة الأتراك: "إن الغاية التي جاءت فرنسا وبريطانيا لتحقيقها في الشرق بعد الحرب، هي منح الشعوب التي طال اضطهاد الأتراك لها الحرية الكاملة غير المنقوصة، وتأسيس حكومات وإدارات وطنية ، تستمد سلطتها من مطالب شعوبها المحلية وخياراتها الحرّة". تعبّر الكلمات عن حقائق أصحابها الذين يدركون، قبل غيرهم، أن قوة الكلام من قوة المتكلم. ولهذا صرّح وايزمان في رسالة لصحيفة التايمز البريطانية في أيار ١٩١٦: "لن تتراجع الصهيونية يوماً عن أهم مبدأ تقوم عليه حركة ديموقراطية، والذي يضمن لجميع الأعراق والطوائف في فلسطين تمام العدل، وكامل الحرية". غير أن المراسلات السرية بين المنظمة الصهيونية والحكومة البريطانية تعبث بالكلام بلا رادع ولا تستبقي من"أخلاقية الوعود" شيئاً، فقد جاء في إحداها: "أما السكان الحاليون، فأعدادهم قليلة جداً قليلة، وهم معدمون يفتقرون إلى المال والخبرة، وإن تحقق التقدم مشروط باستقدام عنصر سكاني جدير قادر على تحقيق التنمية.." المعادلة التي لا أخلاق فيها واضحة التقابلات: السكان الحاليون المقيمون في فلسطين، أي سكان البلاد، لا يعدلون شيئاً أمام "السكان، "القادمين"، أي اليهود، وعلى العنصر القديم" أن يخلي مكانه "للعنصر الجديد"، وعلى من لا يحسن التنمية أن يعطي مكانه للقادر القادم الذي يحسنها.

يتعرّف الفلسطينيون، في منظور التواطؤ الصهيوني ـ الإنجليزي، بمفردات محددة: قلة العدد إلى حدود الغياب، الفقر الشامل على متسوى المال والخبرة، والتخلّف الذي ينكر كل تنمية ممكنة. والمحصلة أن بناء الدولة اليهودية القادمة لن يؤذي أحداً، فهو عنصر تنمية في بلد لا يمكن لوحده أن يعرف التنمية. وبسبب "تفاهة الوضع الفلسطيني" فلا ضرورة للإشارة إلى الفلسطينيين، فهناك جملة "الجماعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين"، التي يمكن إسقاطها من الحساب، كما لو كانت تلك "الجماعات" قد وجدت صدفة في أرض تعود، إلهياً، لليهود. يساوي الفلسطينيون، في هذا المنظور، الهنود الحمر الذين "لا أرواح لهم". غير أن هذه الأرواح، التي لا يعترف بوجودها أنجزت أطول إضراب في التاريخ وثورة شعبية عمرها ثلاثة سنوات، استعمل فيها الإنجليز الحديد والنار و"البراميل المتفجرة". كانت تلك الأرواح تتمسك بأرضها، وهو ما أبصره الصهيوني المتطرف جابوتينسكي الذي أدرك: "ستبقى فلسطين بنظر الفلسطينيين، أكثر من مجرد دولة ذات حدود،

فهي موطنهم وجوهر كيانهم والأساس لانبثاق وجودهم الوطني".ما لم تعترف به بريطانيا العظمى، التي تدّعي حب العدالة، ولا الولايات المتحدة، التي تدافع عن الديموقراطية، اعترف به صهيوني متطرف، صالح بين ضرورة طرد "غير اليهود" والاعتراف بوجودهم.

اعتنق كيسنجر بغطرسة لا اقتصاد فيها مبدأ: "شرعية كذب الأقوياء"، الذي ورثه عن غيره، ولا يزال ساري المفعول حتى الآن، أضافت بريطانيا "الانتداب" إلى مبدأ "الكذب القوي" رذيلة الغموض، التي مادتها كلمات متقاطعة مؤجلة الوضوح حال "للسكان المحليين حق الوجود.." . وإذا كان معنى الحق لا يتجلى واضحاً إلا بالاعتراف الواضح بشعب محدد الهوية والثقافة والتاريخ، فإن في طرد الوضوح ما يطرد الحق و"السكان المحليين". من البداهة إن هذا الغموض المبارك لا وجود له حين الحديث عن "اليهود العائدين إلى أرض أجدادهم" تارة، أو "الذين يتصرفون بحق إلهي ولا منة لأحد عليهم، أو ينقلون المدنية الغربية إلى أرض مهجورة بائسة". الأمر الذي يجعل من المشروع الصهيوني مشروعاً خيرياً، أخلاقياً، سامي القصد، جديراً بالدعم والثناء.

والأمر كله في قاعدة: إن قوة الكلام من قوة المتكلم، الذي قد تضيق بالكلمات، وتستعين بالطائرات والبراميل المتفجرة كما حصل في ثورة ١٩٣٦ ... وقد يقال مباشرة: إن ضعف الكلام من ضعف المتكلم، الذي قد يفتقر إلى الكلمات والطائرات. وإذا كان هناك من ضعف لدى الفلسطينيين فإنه تمثّل أولاً في هؤلاء الذين كانوا يصدقون الكلمات الإنجليزية ويكتفون بظواهرها ولا يتوقفون أمام " مبدأ الغموض الإنجليزي"، الذي كان يلف الأكاذيب بأوراق كلامية مبرقشة معبراً، فعلياً، عن غطرسة القوة والانحطاط الأخلاقي. توقف كارل صباغ أمام جملة لعضو برلمان إنجليزي: "إننا نرى أن خدمة مصالح اليهود بصورتها النهائية كانت ممكنة لو أن الرأي العام البريطاني تلقى منذ البداية بياناً غامضاً غير قطعي بشأن القضية العربية..". على الكلام البرلماني الموجّه إلى الرأي العام، إذن، ألا يكون واضحاً في بدايته، ولا في نهايته لأنه يتضمن، لزوماً، ما لا يقبل العقل المحايد به، الذي يعني "تأمين الحقوق اليهودية" كاملة غير منقوصة. والغموض المفترض شكل "مهذّب" من الكذب لا أكثر، يصرّح بالحقيقة مجزأة، أي بشكل يغير معنى الحقيقة. وإذا كان البرلماني الإنجليزي يسوّغ "غموضاً" أمام رأي عام انتخبه، فما هو شكل هذا الغموض حين يتعامل مع "جماعات فلسطينية" لا يجدر الاعتراف بها؟ إنه الكذب الصريح الذي على متلقيه ان يقبل به وإلا حلّ عليه العقاب.

كان "ساشر" وهو صحافي يعمل في المانشستر جارديان، مقرّب من الزعيم الصهيوني وايزمان، يقول" حبي للوضوح والغموض سواء، فأحب الوضوح فيما نريد له استثناء، وأحب الغموض في الوسائل التي تمكننا من الوصول إليه". لا فرق بين المنطق الصهيوني الطامع في فلسطين ومنطق البرلماني الإنجليزي المتنفذ المدافع عن مصالح اليهود، ولهذا كتب "ساشر" إلى أستاذه وايزمان: "اغتبطت بما سمعته

من أن بلفور يريدنا أن نضع صيغة الإعلان بأنفسنا، وسأكون شاكراً لو أتيحت لي الفرصة لأجرب قلمي بكتابة المسودة، ص:١٢٤". يتقاسم الطرفان الإنجليزي والصهيوني "الغموض المرحلي"، الذي سينقشع عام ١٩٤٨، حين يكون الأول أنجز "الاستثناء" الذي يريده الثاني. كان بلفور واضحاً في وعده "تأمين وطن قومي لليهود"، غامضاً في تحديد الوسائل العملية، التي ستطلب الممكن والمحتمل: زيادة الهجرة اليهودية، المساعدة في إقامة بنية تحتية للدولة اليهودية القادمة، العبث في العمل الوطني الفلسطيني، اللجوء إلى القوة المفرطة لتدمير ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، وكل ما يجب القيام به للبرهنة على "ان السكان الأصليين في فلسطين غير قادرين على تحمل مسؤولية الحكم الذاتي".

تشكّلت المأساة الفلسطينية في شرط استعماري لا يتسم بتكافؤ القوى والإمكانيات ولا بإمكانيات المخادعة، التي استلزمت وحدة الكذب والقوة. لا تعود المأساة، التي استلزمت وحدة الكذب والقوة إلى "سذاجة السكان الأصليين"، ولا إلى نقص في "قدراتهم الوطنية"، كانوا يعرفون ما يخطط لبلدهم ويقاتلون في سبيله بأشكال مختلفة. يقول جابوتنسكي في هذا المجال: "كان العرب في كل مكان يسألون الإنجليز سؤالاً واحداً: أصحيح أنكم "ستسلّمون" الدولة لغيرنا؟ وكان الجواب المعهود في كل مكان أيضاً: كلاّ... لتجنب التحفظات...، لأن سياسة الوطن القومي أمر محقّق لا محالة".

لم تكن "كلاّ" الكاذبة إلا ترجمة لسياسة الغموض القائمة على الكذب، التي هزمت الأكثرية الفلسطينية القائمة بأكثرية مستوردة، "تشبه الغموض الإنجليزي"، الذي يتضّح بالتقسيط ولا يظهر دفعة واحدة إلا في الساعة الملائمة، والسؤال البسيط الساذج: هل هناك سياسة استعمارية أخلاقية؟ أو ما هي حدود الأخلاقية في المشروع الصهيوني ـ الإنجليزي، الذي أضيف إليه، لاحقاً، بعداً أمريكياً؟

٣ ـ الوعي الوطني والفلسطيني الواجب الوجود:

بين الانتساب العفوي إلى الوطن والوعي الوطني الحقيقي فرق ومسافة، إذ الأول أقرب إلى العادة التي لا تسأل عن الأسباب والنتائج، وإذ الثاني ممارسة واعية توحّد بين الأهداف الوطنية والوسائل التي تفضي إليها. ولذلك يمكن الانتساب إلى فلسطين من دون الانتساب إلى الوسائل التي تنصرها، بل يمكن الإخلاص للقدس دون إدراك القضية الفلسطينية في أبعادها المختلفة. في الفرق بين الانتساب والوعي تمكن قراءة الانقسامات الفلسطينية، التي تلت المنفى وسبقته.

تجسدت في خليل السكاكيني، نظراً وممارسة ، دلالة الوعي الوطني الحقيقي، أكان ذلك في ممارسته الكفاحية اليومية أم في "يومياته"، التي كان يترجم فيها الأحداث والوقائع العملية ويعلق عليها بقراءة "تأملية" طليقة. ولأنه كان يعيش الكفاح ويعلق عليه أضاء، بأشكال مختلفة، الموضوع

الأكثر أهمية في العمل الوطني، الذي عنوانه :الوحدة الوطنية، فلا شيء يرتجى من "مدح فلسطين" وتجاهل وحدة الفلسطينيين.

في يوم الأحد، الموافق ٢٨ ـ ٣ ـ ١٩٤٨، وكانت فلسطين تشرف على الغرق، كتب في يومياته: "إني أخشى ويدي على قلبي أموراً" كثيرة، تختصر في أمور أربعة: "أن نعود إلى نغمة مدني وفلاح، وكلاهما يشارك في الدفاع عن الوطن لأن أعداءنا واقفون لنا بالمرصاد، فما أدرانا أنهم قد يوقظون هذه الفتنة النائمة" فتتفرق الكلمة ويسوء المصير. وثاني الأمرين ان نعود إلى "نغمة مسلم ومسيحي"، وثالث الأمور الانصياع إلى "الحزبية المريضة"، ورابعها "أن تعد الحرب حرب غنائم لا حرب جهاد...". لم يرصد السكاكيني أسباب الفرقة والتفرقة إلا ليعلن عن سوء المصير الصادر عنها. كان في الحديث بعد مأساوي، كان المآل الحزين قد أتى، دون أن ينتهي الانقسام، الذي لا يزال متوالداً حتى اليوم.

يبدو العمل على الوحدة الوطنية معياراً موضوعياً في ذاته، لا فرق إن ارتبط بفلاح أو مدني، بحزبي أو بمتحزّب، بمتعلّم يتقن القراءة والكتابة أو بعامل بسيط لا يكترث بقواعد النحو والصرف.

فالوطنية قيمة من القيم الإنسانية العليا، تنطوي على التضحية والأثرة ونكران الممارسات التي تسيء إلى صورة الوطن ووحدته، وكل ما يجعلها تفيض على الطبقة والعشيرة والقبيلة، ناهيك عن "الزعامة" و "التزعّم"، أي أنها ممارسة تتجاوز المراتب والمقامات جميعاً. وبسبب هذا المعيار الموضوعي تغيب الثنائيات التقليدية المختلفة: المتعلم/العامي، المتحزّب/اللاحزبي، ويغيب ذلك الفرق الطريف الأقرب إلى الاصطناع بين "الأيدي المتوضئة" و "الأيدي غير المتوضئة"، ذلك أن الوضوء لا يشكّل بعداً من أبعاد الوعي الوطني، الذي يبدأ بتضامن الفلسطينيين لا بفرائض الوضوء. يتمثّل الفلسطيني بفعله الوطني، الذي لا يكون فاعلاً إلا إذا جمع بين الإخلاص والمعرفة والخبرة والنزاهة والبُعد عن المصالح الضيقة، واتخاذ مستقبل فلسطين وحده مرجعاً للعمل والاجتهاد والنظر. كان الأفغاني يقول: إن صورة الإسلام من صورة المسلمين، الذي يصبح في الحال الفلسطيني: "إن صورة فلسطين من صورة الفلسطينيين"، ترتقي بارتقائهم وتنهدم وتتداعى بانهدام قيمهم وتداعي معارفهم.

تحدّث خليل السكاكيني ، في ما كتبه يوم الأحد ١٩٤٨/٣/٢٨ عن شخصيات وطنية من "سواد الشعب"، مثل: كامل عريقات وإبراهيم أبو ديّة والمختار "أبو عطا" الذي كان في محيّاه ما يشير إلى "الذكاء والاختبار والوطنية، تحادثه فتحسبه خريج أرقى المعاهد العلمية، لغة جميلة، آراء ناضجة، همة عالية، فأين منه بعض أعضاء الهيئة العليا ممن إذا قيسوا به كانوا أميين وكان من المتعلمين..". ولعل أولوية الممارسة الوطنية على القول هي التي حملت السكاكيني، الذي كان ينطلق مما يرى، على تفضيل الفلاح على المدني، ذلك "أن الفلاح يشتري سلاحه وعتاده من ماله،.....، وقد يبيع ابنه

بيع السماح ليظفر ولو ببندقية ـ الكتاب الثامن ص : ٢٥٤".

وواقع الأمر أنّ السكاكيني لا يضع فئة اجتماعية فوق أخرى، ولا يؤمن بالمراتب، لأنه كان يقرأ مرتبة الفلسطيني في اتساقه الأخلاقي واستعداده الكفاحي، وهو ما أبانه وهو يكتب عن المقاتل النموذجي إبراهيم أبو دية: "بلغني أنّ إبراهيم مثخن الجراح وقد أخرج الأطباء من جسده بضع رصاصات وشظايا، إلا أنه أبى إلاّ أن يمشي في جنازة الشهيد عبد القادر الحسيني، وبلغني أنّ كثيرين من الخطباء رثوا الفقيد بينهم إبراهيم أبو دية، وأنّ خطبة إبراهيم كانت أجمل الخطب وقد ارتجلها ارتجالاً...".

ومع أنّ السكاكيني، وهو المربي الذي فتنته اللغة العربية، توقف أمام "جمالية الخطابة"، فإنه توقف قبلها أمام جمالية الأخلاق، التي لا تأتي من عادات القراءة والكتابة، بل من احترام الإنسان لذاته، الذي يتجلّى في الشرط الفلسطيني في تعلّم "دروس المعركة" التي تحيل على التضحية، مهما كان شكلها، وعلى وعي الذات ومقوّماتها الموضوعية، التي تنطوي، في الشرط الأخير، على الوحدة والتنظيم، أو تنطوي، بشكل أدق، على "ثقافة الوحدة والتنظيم" التي شرح دلالتها، أكثر من مرة، تاريخ الشعب الفلسطيني. كتب السكاكيني في الشهر الأول من عام ١٩٤٨: "لست أدري والله كيف نستطيع أن نثبت أمام عدوان اليهود وهم مدرّبون منظمون متحدون مجهّزون ونحن لسنا من كل ذلك في شيء. أما آن لنا أن نفهم أنّ الاتحاد يغلب التفكك، وأنّ النظام يغلب الفوضى، وأنّ الاستعداد يغلب الإهمال. ص:/ ٢٣٨". ليست الوطنية، كما وعاها المربي الفلسطيني وغيره، بلاغة ولا شعارات ولا فعلاً عفوياً أقرب إلى العادة والمهنة، إنما هي تلك الوحدة العضوية بين التنظيم والتدريب والاتحاد والإعداد الكفاحي المستمر، وهي الوعي بالنتائج المدمرة الصادرة عن غياب هذه العناصر. ولهذا فإنّ الوحدة الوطنية، كما الفعل الوطني، تستلزم ثقافة توحيدية فاعلة، وتأمر بفعل وطني حواري، يصوّب الأخطاء الممكنة في خطاب الوحدة والتنظيم.

بالإمكان الحديث عن: ثقافة الوحدة الوطنية، التي تمثّل في جوهرها فعلاً كفاحياً بامتياز، يوسّع المكان والزمان، إذ مكان الفلسطيني قضيته (لا قريته ولا حمولته)، وإذ زمنه تاريخ فلسطين الكفاحي. ولعلّ تحرير الفلسطيني من مراجعه الضيّقه هو الذي يطرح المقولة التالية: مسؤولية أن يكون الفلسطيني فلسطينياً، يكشف عن عدالة قضيته في سلوكه، وينتمي إلى تاريخه بأخلاقه. وهو في هذا لا يسأل عن مصلحة ولا يكترث بجائزة، وينتسب إلى نسق من المقاتلين، كرّمهم وطنهم بالانتساب إليه. ولذلك تحدّث السكاكيني عن "الجندي المجهول" الذي يقاتل إيماناً بالحق والشرف والكرامة، و "يتفرّغ لمقاتلة العدو دون أن يشغله شيء آخر"، بلغه السكاكيني.

رأى المربي الفلسطيني في "المدرسة مصنع الأبطال"، تمدّه بمعارف جديدة وتحرّره من استبداد العادات المتخلّفة. لكنه وهو يصف المتظاهرين في ثورة ١٩٣٦، وقع على مدرسة جديدة، عنوانها: أخلاق المواجهة مع العدو، التي تتعرّف بفاعلية المجموع لا برغبات الأفراد، إذ ينتصر المقاتل بغيره، وينصر غيره ذلك أنّ هناك جسماً كفاحياً واسعاً يدعى: الشعب الفلسطيني، الذي يدافع عنه الفرد اعتماداً على وازع وطني داخلي، تأمر به "الفضيلة الوطنية".

كتب السكاكيني قبل الرحيل الكبير، وهو يصف معركة قادها إبراهيم أبو دية: "انبثق الفجر. وإذا إبراهيم أبو دية قد جاء من ساحة القتال أشعث أغبر، منخرق القميص من شظايا القنابل، لو رأيته لما عرفته، وهو يقول: لقد قتل أكثر رجالي. قلنا: ألم تستنجد أحداً. قال: لا أستنجد أحداً، إذا لم ينجدوني من تلقاء أنفسهم فلا خير فيهم". أدرك ذلك المقاتل، الذي قتل أكثر رجاله، إنّ نصرة المدافعين عن الوطن خيار ذاتي، لا تحتاج إلى خطاب ولا إلى وعود "عامرة"، فمن لا يوقظه صوت وطنه، المحاصر بظلم الحياة، لن يوقظه أحد. لا تنفصل اليقظة الذاتية عن قيم هي مزيج من العفوية الموروثة وثقافة التجربة.

٤. كلمة أخيرة:

يطرح كتابي هنري لورانس، وكارل صبّاغ موضوع: ثقافة التجربة التي تصونها الذاكرة الوطنية، نظرياً، من الضياع، هذه الذاكرة التي لا تحتفظ بأطياف عائلتين حسيبتين (الحسيني والنشاشيبي)، بل بدروس الاختلاف والتنازل الذين يمزّقان القوة الفلسطينية ويدعان الوطن نهب الأقدار وأعدائه. فقد كان في مسار كل عائلة تجربة جديرة بالقراءة، وفي مسار الصراع بينهما صورة عن مجال سياسي فلسطيني لم يتماسك وتحرّك متآكلاً. ولعل ثقافة التجربة، التي تحتاج إلى ما يعيد بناءها ويجعلها فاعلة، هي التي تضيء تأملات خليل السكاكيني، الذي كتب عما عاشت ورأى واقترح: سياسة ثقافية وطنية، لا تنفصل عن سياسة وطنية صائبة، توحّد بين الفعل والقيم، إذ الفعل بلا قيم يفضي إلى الخيبة، وإذ القيم بلا فعل تأمل مدرسي مجرد تهزمه الوقائع، قبل أن يهزم ذاته.

إشارات:

١. هنري لورنس: مسألة فلسطين، المجلد ١٧٩٨-١٩٢٢، الكتاب الأول، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،٢٠٠٦.

٢. كارل عيسى صباغ: فلسطين تاريخ شخصي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٣.

٣. يوميات خليل السكاكيني، الكتاب الثامن، الخروج من القطمون ١٩٤٢-١٩٥٢، مركز خليل السكاكيني، مؤسسة الدراسات المقدسية، رام الله، ٢٠١٠.